المعارف الحكمية
معهد الدراسات الدينية والفلسفية

العدد 36 | ربيع 2021

المَحَجّة

36

مجلة متخصصة تعنى بشؤون
الفكر الديني والفلسفة الإسلامية

عدد خاص

تشيتيك: مقاربات في التصوّف، والحبّ، والإنسان

حوار مع البروفيسور ويليام تشيتيك

ويليام تشيتيك

- التجربة الدينيّة في الإسلام التقليديّ
- الجذور الإلهية للحبّ الإنساني
- الحبّ في الثيولوجيا الباطنية الإسلاميّة
- الصداقة والحبّ في المعنويّة الإسلاميّة
- موسى ودين الحبّ: تأمّلات حول منهجيّة دراسة التصوّف
- ضبابيّة الأمر القرآني

محمّد رستم
التوازن والتحقيق: النفس والكون عند ويليام تشيتيك

بهروز سلطاني
منهجية ويليام تشيتيك في دراسة وتفسير النصوص الحكميّة والعرفانيّة

المَحَجّة | العدد السادس والثلاثون ٢٠٢١

مجلّة تُعنى بشؤون الفكر الدينيّ والفلسفة الإسلاميّة

المشرف العام	شفيق جرادي	
رئيس التحرير	أحمد ماجد	
مدير التحرير	سكينة أبو حمدان	
المدير المسؤول	بدري معاوية	
الهيئة العلمية	أحمد ماجد	علي يوسف
	حسين إبراهيم	علي الموسوي
	سمير خير الدين	محمّد زراقط
		مصطفى الحاجّ عليّ
الهيئة الاستشارية	غلام رضا أعواني	جاد حاتم
	نادر البزري	محمّد تقي السبحاني
	سعاد الحكيم	محمّد مصباحي

إخراج فنّيّ

IDEA CREATION Advertising Agency

رسالة معهد المعارف الحكميّة: معهد المعارف الحكميّة (للدراسات الدينيّة والفلسفية) مؤسسة بحثيّة تعليميّة، تنشط في الحقل الفكريّ من أجل توفير حضور فاعل في الوسط العلميّ والثقافيّ، وتجسير التواصل بين الاتّجاهات الدينيّة والفكريّة، من خلال الدراسات المعمّقة والتعليم التخصّصي، والأنشطة والنشر.

ضوابط النشر في مجلّة المحجّة: تنشر المحجّة الأوراق العلميّة والمقالات الفكريّة التي تتحقق فيها الأصالة بحيث لا تكون قد نشرت سابقًا، أو مقدّمةً للنشر في مكان آخر؛ تتولّى الهيئة العلميّة في المجلّة تحكيم المواد المقدّمة وترجيحها، على أن تبقى أسماء المحكّمين والكتّاب غير معلنة؛ يحقّ لإدارة التحرير إجراء التعديلات المناسبة على البحث بشكل منفرد أو بالاتّفاق مع الباحث؛ تُرفق جميع المساهمات بملخّص لا يزيد عن ١٥٠ كلمة. ولا يتم قبول الأبحاث التي لا تستوفي الشروط المبيّنة أعلاه. وتحتفظ دار المعارف الحكميّة بكامل حقوق الطبع والنشر للموادّ التي يتمّ نشرها في المجلّة.

ما يُنشر في المجلة يعبّر عن رأي صاحبه ولا يعبّر بالضرورة عن رأي المجلة.

تُرسل الاشتراكات والمراسلات باسم رئيس التحرير على العنوان التالي:

معهد المعارف الحكميّة (للدراسات الدينيّة والفلسفيّة)

لبنان ـ الحدث ـ سانت تيريز ـ سنتر يحفوفي بلوك C ـ الطابق الثالث

أو على رقم الحساب: بنك عودة 59129946100206401

info@al-mahajja.org

00961-5-462191

ISSN: 2224 -1094

التوازن والتحقيق: النفس والكون عند ويليام تشيتيك(*)

محمّد رستم(**)

ترجمة: ديما المعلّم(***)

لم يكن تشيتيك من المهتمّين بالنقاشات حول الفكر الإسلاميّ بكونها، ببساطة، بقايا من التاريخ الفكريّ ما قبل الحديث، بل إنّه يجعل من معرفته الواسعة في المجال الفكريّ الإسلاميّ منصّةً يعالج عبرها مجموعةً من القضايا المعاصرة. وفي هذا المقال القصير، يتناول الباحث كتابات تشيتيك عن النفس في ظلّ مقاربته لموضوع الكوزمولوجيا؛ حيث يؤكّد تشيتيك أنّ التعاليم الكوزمولوجيّة الإسلاميّة ليست طرائق قد عفا عليها الزمن للنظر إلى الكون وعلاقتنا به، بل هي ما زالت مرتبطةً بموضوع النفس في يومنا هذا بقدر ما كانت مرتبطةً به في ما مضى من الأيّام.

الكلمات المفتاحيّة: ويليام تشيتيك؛ الكوزمولوجيا؛ العلمويّة (*scientism*)؛ النظرة الأنثروبوكوزميّة (*anthropocosmic vision*)؛ العالم الصغير (*microcosm*)؛ العالم الكبير (*macrocosm*).

يقول ويليام تشيتيك: «إنّ الكون هو منظومة هائلة من الكلمات التي تحكي قصّةً متماسكةً للذين يفقهون؛ وهذا يعني أنّ الكون ما هو إلّا كتاب. والإنسان، هو الآخر، كتاب، لكنّ البشر، بمعظمهم، قد نسوا حبكة القصّة»(١).

(*) نُشِرَ المقال في الأصل في مجلّة *Journal of the Islamic Social Sciences* العدد **٢٥**، السنة ٣، كما نُشِرَ مترجمًا إلى الفارسيّة في مجلّة **كتاب ماه دين**.

(**) أستاذ مساعد في دائرة الدين في جامعة كارلتون في أوتاوا، كندا. البريد الإلكترونيّ:
mrustom@connect.carleton.ca

(***) معهد المعارف الحكمية، للدراسات الدينيّة والفلسفيّة، بيروت.

(١) William Chittick, *The Self-Disclosure of God: Principles of Ibn al-ʿArabi's Cosmology* (Albany: State University of New York Press, 1998), p. xxxiv.

المقدّمة

كلّ تلميذ من تلامذة الفكر الإسلاميّ يألف، ولا ريب، إسهامات ويليام تشيتيك، إذ مهّدت دراساته وترجماته العديدة في مجالَي التصوّف والفلسفة الإسلاميّة الطريق أمام فهم أفكار بعض أعقد وأعمق علماء الحضارة الإسلاميّة ما قبل المعاصرة[١]. لكن تجدر الإشارة إلى أنّ تشيتيك قد عكف مؤخّرًا على تكريس معرفته في المجال الفكريّ الإسلاميّ لتسليط الضوء على عدد من القضايا المعاصرة. غالبًا ما يتساءل مفكّرون مسلمون (وغير مسلمين) عن كيفيّة إمكان تصدّي شخصيّات مثل الغزاليّ (ت. ١١١١/٥٠٥) وابن عربيّ (ت. ١٢٤٠/٦٣٨) لقضايانا الفكريّة المعاصرة، بل إنّ عددًا لا بأس به من الكتابات التي ما برحت تصدر مؤخّرًا ترمي إلى الإجابة عن ذلك السؤال بالذات[٢]. لكنّ مقاربة تشيتيك تختلف؛ فهو يجنح إلى رؤية القضايا المعاصرة من منظور التيّار الفكريّ الإسلاميّ ما قبل المعاصر تحديدًا. بمعنًى آخر، تنهل كتابات تشيتيك في المجال المعاصر من التيّار الفكريّ الإسلاميّ بغية الوصول إلى لبّ المشكلة. لذلك، ينبغي فهم كتاباته في مجال الكوزمولوجيا وعلاقتها بالنفس في هذا الإطار. ولهذا السبب تحديدًا يكتسب عمله أهميّةً خاصّةً في أيّامنا، فمقاربته مقاربة إسلاميّة فكريّة أصيلة لإشكاليّة كانت غائبةً، إلّا ما ندر، عن ساحة الفكر الإسلاميّ في القرن الحادي والعشرين[٣]. أمّا تشيتيك، فهو يصرّ على

(١) تشيتيك هو أيضًا قامة معروفة في مجالات أوسع من قبيل الدراسات الدينيّة والفلسفة عمومًا، وغالبًا ما كانت كتاباته أساسًا للعديد من المشاريع المقارنة. انظر، خاصّةً، ما يلي:

Reza Shah-Kazemi, *Paths to Transcendence: According to Shankara, Ibn ʿArabi, and Meister Eckhart* (Bloomington: World Wisdom, 2006).

انظر أيضًا الدراسة التي أنجزها إيان ألموند، وهي لا تخلو من مشاكل:

Ian Almond, *Sufism and Deconstruction: A Comparative Study of Derrida and Ibn ʿArabi* (New York: Routledge, 2004).

(٢) أحدثها كتاب إبراهيم موسى:

Ebrahim Moosa, *Ghazali and the Poetics of Imagination* (Chapel Hill: University of North Carolina Press, 2005).

وكتاب محمّد حاج يوسف، لا سيّما الفصل السابع منه:

Mohamed Haj Yousef, *Ibn ʿArabi: Time and Cosmology* (New York: Routledge, 2008).

(٣) للمزيد، انظر،

The Blackwell Companion to Contemporary Islamic Thought, ed. Ibrahim Abu-Rabiʿ (Malden: Blackwell, 2006).

من الثغرات التي تشوب الكتاب غياب مقال يتناول هذا الموضوع. في المقابل، يجد القارئ إسهامات لافتة في مجال العلم والكوزمولوجيا والأخلاق في الفكر الإسلاميّ المعاصر في ما يلي:

God, Life, and the Cosmos: Christian and Islamic Perspectives, ed. Ted Peters, Muzaffar Iqbal, and Syed Nomanul Haq (Aldershot: Ashgate, 2002).

أنّ الفهم الصحيح للنفس وعلاقتها بالكون هو المبحث الأهمّ في الوقت الحاضر لأنّ معضلة البشريّة المعاصرة التي نكابدها جميعًا ما هي إلّا نتيجة لعجزنا عن فهم تينك الحقيقتَين فهمًا صحيحًا.

أ ـ العلمويّة والكوزمولوجيا

يسلّم تشيتيك أنّ وجهات نظر معظم الناس مشوبة بما يُعرَف بـ «العلمويّة». والعلمويّة هي المدرسة الفكريّة التي تعطي الأولويّة لمناهج العلم في أيّ قضيّة إبستيمولوجيّة. وما دامت العلمويّة القلب النابض في الثقافة المعاصرة، في المجالات الأكاديميّة وحتّى القطاعات التكنولوجيّة والماليّة، فهي تتخلّل تفكير الناس وتنفذ فيه. ويستدعي تطبيق العلمويّة عزل الأشياء وجعلها موضوعيّةً بعيدةً عن الباحث ثمّ إخضاعها للتحليل العلميّ الدقيق من أجل كشف حقيقتها. لذلك، فإنّ العلمويّة تضيّق، إلى حدّ كبير، احتمال نشوء علاقة متناغمة بين النفس البشريّة والكون. فالأشياء هي «في الخارج»، وهذا يعني أنّها متمايزة عنّا. لكنّ هذه المسافة بين الذات والموضوع تعني أنّ وجهة النظر العلمويّة لا يمكن أن ترى الكون إلّا بطريقة كمّيّة، جاعلةً من مكوّنات هذا الكون مجرّد خليط من الوقائع والأحداث المسلوبة من أيّ قيمة رمزيّة. وكما يقول تشيتيك، إنّ أولئك الذين تشرّبوا وجهة النظر العلمويّة قطرةً فقطرةً:

> ينظرون إلى الأشياء ويعجزون عن رؤيتها على أنّها أكثر من أشياء؛ ولا يمكن، برأيهم، أن تكون هذه الأشياء أبدًا إشارات أو علامات أو مؤشّرات أو رموزًا. فمن المرحلة الدراسيّة الابتدائيّة فصاعدًا، يلتقّن هؤلاء أنّ الأشياء حقيقيّة بذاتها، وأنّ حقيقة هذه الأشياء لا يمكن التعبير عنها إلّا بطريقة علميّة، أيّ بطريقة حسابيّة وكمّيّة. فإن كان ممكنًا التعبير بالأرقام عن بعض الصفات، كالألوان مثلًا، كانت حقيقيّةً. أمّا الصفات التي لا يمكن التعبير عنها كمّيًّا ـ وذلك حال أغلبها ـ فهي ليست حقيقيّةً[1].

أمّا النتيجة المنطقيّة لرؤية مشيَّئة و«موضوعيّة» للكون وملحقاته فهي فقدان النظام الكونيّ، شيئًا فشيئًا، قيمته المعنويّة[2]. ثمّ إنّ ذلك يؤدّي إلى التجريد الذي يُظهِر الكون على أنّه غير

(١) William Chittick, *The Heart of Islamic Philosophy: The Quest for Self-Knowledge in the Writings of Afdal al-Din Kashani* (New York: Oxford University Press, 2001), p. 36.

(٢) William Chittick, *Science of the Cosmos, Science of the Soul: The Pertinence of Islamic Cosmology in the Modern World* (Oxford: Oneworld, 2007), p. 83.

شخصيّ، ما يجعل أيّ تفاعل بشريّ مع هذا الكون عملًا منسلخًا أبترَ[١]. وبمجرّد أن ينشأ هذا الصدع بين النفس والكون، يسهُل التلاعب بصورة الكون ومكوّناته بحسب أهواء ساكنيه[٢].

ثمّ إنّ القرّاء المطّلعين على المعطيات الصادمة التي صدرت عن الفيزياء المعاصرة سيؤكّدون، ولا ريب، أنّ الكون ليس متشعّبًا إلى شعبتَين، وذلك لأنّه أقرب ما يكون إلى وحدة مفردة لا يمكن أن ينفصل عنها المراقِب–الإنسان[٣]. لكن لا يختلف اثنان على أنّ الرؤية الثنائيّة للكون لا تزال مستحكمةً، وإن قدّمت الفيزياء الجديدة معطيات عميقةً عن الكون. وما دامت هذه الرؤية هي التي تُدرَّس «رسميًّا» في المدارس حتّى اليوم[٤]، نحن نتفطّن منذ الصغر إلى أنّ الوسيلة الأنجع للتحكّم ببيئتنا الطبيعيّة بغية الحصول على النتائج تكمن في اعتناق هذه الرؤية. لذلك، تسيطر التكنولوجيا، والتقدّم المادّيّ، وطبيعة العلم النفعيّة على منظورنا، فالعلمويّة هي التي تتيح لنا التحكّم بالكون بحسب حاجاتنا والمواصفات التي نبتغيها.

ومن الأسباب الأخرى لاستحكام الرؤية الثنائيّة على حساب غيرها أنّ علم الكوزمولوجيا المعاصر، على المعرفة التي أكسبنا إيّاها عن الكون اليوم، لا يعني شيئًا لعموم الناس. صحيح أنّ كتبًا من قبيل *A Brief History of Time* لستيفن هوكينغ (ومختصره الذي يحمل عنوان *A Briefer History of Time*)[٥] قد كُتِبَت لتيسير معطيات الفيزياء المعاصرة وجعلها في متناول عامّة الناس، لكن لعلّ لنا الحقّ، بعد تصفّحها، بالتساؤل عن الفائدة العمليّة التي عادت بها تلك الكتب على حياتنا. لا بل إنّ المعطيات التي تقدّمها الفيزياء المعاصرة هي منفصلة تمامًا

(١) *Science of the Cosmos, Science of the Soul: The Pertinence of Islamic Cosmology in the Modern World, op.cit.*, pp. 86-87; 93-97.

(٢) لا غرو أنّ هذا التشييء للطبيعة تحديدًا هو الذي أثار عددًا كبيرًا من الأزمات الكبرى المعاصرة، ومنها المشكلة الإيكولوجيّة. للاطّلاع على جذور المشكلة الإيكولوجيّة، راجع:

Seyyed Hossein Nasr, *Religion and the Order of Nature* (New York: Oxford University Press, 1996).

للمزيد، انظر،

William Chittick, "'God Surrounds All Things': An Islamic Perspective on the Environment," in: *The World and I* **1**/6 (June 1986): pp. 671-678.

(٣) للمزيد، انظر،

Fritjof Capra, *The Tao of Physics* (Boston: Shambala, 1991), p. 81.

(٤) للمزيد، انظر،

Caner Dagli, "The Time of Science and the Sufi Science of Time," in: *Journal of the Muhyiddin Ibn 'Arabi Society* **41** (2007), p. 78.

وانظر أيضًا ملاحظات تشيتيك التي ذكرتها أعلاه عن دور العلمويّة في التعليم.

(٥) Stephen Hawking, *A Brief History of Time* (New York: Bantam, 1998); Stephen Hawking and Leonard Mlodinow, *A Briefer History of Time* (New York: Bantam, 2005).

عن حياة الإنسان اليوميّة، إذ تبقى الفيزياء النظريّة بنظر جموع المتعلّمين ـ ناهيك عن الأغلبيّة العظمى من الناس الذين لا يبالون بقراءة كتاب فيزياء ميسّر للعامّة ـ مجموعةً من المعطيات المذهلة التي لا علاقة حقيقيّة لها بحياتهم اليوميّة. ففي نهاية المطاف، ما هو عدد علماء الفيزياء المعاصرين الذين يقرّون بالصلة بين العمل الذي يمتهنونه وبين تفاصيل حياتهم اليوميّة؟

لكن لعلّ السبب الأبرز لهيمنة الرؤية الثنائيّة يكمن في كون الكوزمولوجيا المعاصرة، بصفتها فرعًا من فروع المعرفة، منحصرةً بالعلمويّة. ففي حين تخلص الكوزمولوجيا إلى أنّ صورة الكون قائمة على ذات وموضوع غير منفصلَين، لا بدّ لها، في نهاية المطاف، من أن ترجع إلى الجانب الرياضيّ والكمّيّ في المعادلات التي تصيغها. بمعنًى آخر، لا يخفى على أهل الفيزياء المعاصرة أنّ الكون أشدّ تعقيدًا بكثير ممّا كنّا نظنّ، لكنّهم حين يسعون لفهم الصورة الكونيّة التي وصلوا إليها بالوسائل العلمويّة، لا يمكنهم إلّا أن يعطوا إجابات علمويّةً بالضرورة. ويعني هذا التجذّر في العلمويّة أنّ النظريّات الكوزمولوجيّة المعاصرة ستبقى منحصرةً أبدًا بالجانب الرياضيّ والكمّيّ. لكنّ تحذير تشيتيك في محلّه: «يستحيل الانفتاح على اللّانهائيّ ما دامت وجهة النظر العلمويّة البتراء هي الحكَم. وفي أحسن الأحوال، قد يبتكر الناس كوزمولوجيا جوفاء بالكاد تتيح لهم أن يجيلوا أنظارهم أبعد من حدود الثقافة الشعبيّة»[1].

بمعنًى آخر، لا تملك الكوزمولوجيّات العلميّة المعاصرة أن تقول شيئًا مغايرًا لما قد قالته أصلًا لأنّ العلمويّة هي المرجع الذي تحتكم إليه.

فقط عند نبذ العلمويّة يمكن أن تتحوّل الكوزمولوجيا إلى علم رموز يخاطب البشر على مستوًى يتجاوز ما هو رياضيّ وكمّيّ. ومع التوصّل إلى علم يتناول الروح بموازاة علم يتناول الكون، يصبح ممكنًا الفكاك ممّا يسمّيه كوربان «السرداب الكونيّ (*the cosmic crypt*)»[2]. في حال حدوث ذلك، يتجاوز المرء نفسه من أجل أن يتجاوز الكون. لكن من دون مفهوم مقدّس للكون، لن ينشأ العلم الموازي الذي يتناول الروح، وسيبقى الإنسان حبيس السرداب الكونيّ، مفتقرًا إلى أيّ وسيلة للهروب. فإذا انعدمت وسائل الهروب، انكمشت الحاجة إلى الهروب وتلاشت.

(١) *Science of the Cosmos, Science of the Soul*, op.cit., pp. 83.

(٢) للاطّلاع على مفهوم السرداب الكونيّ عند كوربان، انظر كتابه:
Henry Corbin, *Avicenna and the Visionary Recital*, trans. Willard Trask (Irving: Spring Publications, 1980), pp. 16-28.

ب ـ النظرة الأنثروبوكوزميّة

في المقابل، إن التفتنا نحو التيّار الفكريّ الإسلاميّ وجدنا أنّ التصوّف النظريّ وبعض اتّجاهات الفلسفة الإسلاميّة كلَيهما يريان الكون على أنّه قد جاء على صورة الله ومثاله. بذلك يكون بنو البشر، وهم أيضًا مخلوقون على صورة الله ومثاله، الكون بعينه ولا شيء سواه. هما، كما يقول تشيتيك بتعبيره الشاعريّ اللطيف، «جانبان لعملة واحدة، عملة قد سُكَّت على صورة الله»[١]. وهذا يعني أنّ علاقةً وثيقةً تربط الوسائل التي يختبر الفاعل من خلالها العالم بالصورة الكونيّة التي يسكنها هذا الفاعل المختبِر:

> لا يملك التيّار الفلسفيّ الإسلاميّ إلّا أن يفهم البشر من ناحية وحدة العالم الإنسانيّ والعالم الطبيعيّ، إذ لا مكان فيه لإسفين يُدَقّ بين البشر والكون. فالعالم الطبيعيّ هو، في المحصّلة، استظهار الجوهر الإنسانيّ، وروح الإنسان هي استبطان عالم الطبيعة. تربط علاقة حميمة البشر بالكون بأسره، ويواجه كلّ منهما الآخر كأنّهما مرآتان. فرحلة طلب الحكمة لا يمكن أن تتكلّل بالنجاح إلّا عند الاعتراف بعالم الطبيعة صنوًا للنفس، والاعتراف بالجنس البشريّ، مجتمِعًا، على أنّه تجسّد خارجيّ لإمكانات الروح الإنسانيّة واحتمالاتها[٢].

يسمّي تشيتيك هذه العلاقة الحميمة، متأثّرًا بميرتشا إلياده (ت. ١٩٨٦) ودو وايمين، النظرة الأنثروبوكوزميّة. وما دامت النظرة الأنثروبوكوزميّة تستدعي رؤية النفس والكون على أنّهما «كلٌّ مفرد عضويّ»[٣]، فإنّ معرفة أحدهما تنطوي على معرفة الآخر. وانسجامًا مع العقائد الإسلاميّة التقليديّة، الروح هي **العالم الصغير** والكون الأوسع هو **العالم الكبير**. ووفقًا للآية ٥٣ من سورة **فصّلت**، تمثُل **آيات** الله أمامنا في العالم الصغير وفي العالم الكبير معًا: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾. لا مكان للتباين المطلق بين الذات والموضوع هنا، وهذا يعني أنّ الناس كلّما أمعنوا بدراسة الآيات الكامنة في أنفسهم، تفتّحت أمامهم الآيات الكامنة في الكون. وكلّما فهمنا العالم الصغير أكثر، تعرّفنا إلى العالم الكبير.

لكن لا يمكن الوصول إلى تحقيق النظرة الأنثروبوكوزميّة إلّا بالانتباه إلى الصفات الإلهيّة الكامنة في النظام الكونيّ. وفي الدين الإسلاميّ، تؤدّي أسماء الله الحسنى دور الوسيط الموصل إلى الصفات الإلهيّة، إذ حيثما ننظر في الكون نرى أسماء الله الكامنة في أنفسنا أيضًا. وقد علّم

(١) *Science of the Cosmos, Science of the Soul*, op. cit., p. 132.
(٢) *The Heart of Islamic Philosophy*, op. cit., p. 66.
(٣) Ibid, p. 109.

الله آدم أسماءه الحسنى، ما يعني أنّ غاية بني آدم هي أن يحقّقوا الأسماء الإلهيّة الكامنة في أنفسهم، فبمعرفة أسماء الله يدرك البشر الصفات الرئيسة التي يقوم عليها الكون[١]. أمّا تحقيق الأسماء الحسنى فيتطلّب الاهتداء بهدى الله لأنّه يرسي أسس فهم الأسماء والعمل عملًا منسجمًا معها على أرض الواقع. لهذا يقول تشيتيك:

> إنّ الفكرة الحاكمة في الفكر الإسلاميّ، بعد تأكيد وحدة الحقّ وإطلاقه، هي انحجاب طبيعة العالم الحقيقيّة عن بني البشر إلّا بعون الله. ترد هذه الفكرة تصريحًا في الجزء الثاني من الشهادة، على أنّها ترد تلميحًا في الجزء الأوّل منها أيضًا. فمن دون الرسل الذين يرسلهم الحقّ، لا يمكن أن يتوصّل أحد إلى معرفة الله والجذوز الإلهيّة القابلة للتغيّر في قلب الطبيعة البشريّة[٢].

أمّا إن لم يتّبع الناس الهدى الإلهيّ، فسيكلهم الله إلى أنفسهم، وإن تركهم الله لن يستطيعوا فهم الأسماء في الكون ولا تلك التي في أنفسهم. لكن ما دامت النزعة إلى التسمية أصيلةً في الطبيعة البشريّة، لن يستطيع هؤلاء الناس إلّا أن يختلقوا الأسماء اختلاقًا. لكنّ أسماءهم المختلقة لن تأخذهم أبعد من أنفسهم:

> إن لم يسمِّ الناس الأشياء اتّباعًا للهدى الإلهيّ، فهم سيطفقون يسمّونها وفقًا لأهوائهم. لكن يستحيل أن يعرفوا أسماء الأشياء الحقيقيّة من دون الاستعانة بالله، المسمِّي الإلهيّ، لأنّ الأسماء الحقيقيّة هي حقائق الأشياء كما هي في العقل الإلهيّ. والله هو الذي يسبغ على الأشياء وجودها بناءً على أسمائها. لذلك، فإنّ إدراك الأسماء الحقيقيّة هو مفتاح فهم الكون والروح[٣].

ولا يسمّي الناس الأشياء على حسب الحقائق التي ينسبونها هم إليها إلّا عندما يرتفع عن الكون الذي يسكنونه طابع القداسة، فحين يصير البشر هم المعيار وتنطمس حقيقتهم الإلهيّة المتغيّرة، يُسلَب الكون رداءه القدسيّ شيئًا فشيئًا. في هذه الحالة، وعوضًا من أن تشير الأشياء التي يزخر بها الكون إلى جذوزها الإلهيّة، تتحوّل إلى مجرّد وقائع. ولا تعود الأشياء تشير إلى الأسماء الإلهيّة لأنّ المقدّس قد انفصل عنها. بعد ذلك، تصير الأشياء عرضةً لنظام التسمية

---

(١) *Science of the Cosmos, Science of the Soul*, op. cit., pp. 84-85.

للاطّلاع على نقاش مهمّ حول وظيفة «الكلمات» في الكوزمولوجيا الإسلاميّة، انظر ما يلي:
William Chittick, "The Words of the All-Merciful" in *The Inner Journey: Views from the Islamic Tradition*, ed. William Chittick (Ashland: White Cloud Press, 2007), pp. 121-129.

(٢) *Science of the Cosmos, Science of the Soul*, op. cit., p. 97.

(٣) Ibid, pp. 85-86.

البشريّ لأنّها كيانات قائمة بذاتها وقابلة للإحصاء والعدّ:

> أي وجهة نظر تُقصي البعد الإلهي ستضطرّ بالضرورة إلى اللجوء إلى أسماء قاصرة في أحسن الأحوال، هذا إن لم تكن أسماءً مغلوطةً بالمطلق. وستكون نتيجة هذه التسمية المضلَّلة كارثيّةً على مختلقي الأسماء أنفسهم، إن لم يكن على البشريّة جمعاء. وهي كارثة تطال جميع حدود الوجود البشريّ وليس فقط وجوده في هذه الدنيا ما قبل الموت[١].

لا يوصلنا نظام التسمية البشريّ إلى جذور الكون الإلهيّة لأنّه لا يأتي إلّا بأسماء قاصرة، بل هو يعيدنا إلى المربّع الأوّل من محاولتنا معرفة العالم بصفتنا بشرًا. ومع أنّ التسميات البشريّة يمكن أن تكون مفيدةً جدًّا، تبقى معرفتها عائقًا أمام تحقيق البشر إمكانيّاتهم الحقيقيّة الكامنة في إدراك كنه الأسماء التي تعلّمها أبوهم آدم من قبل.

وغالبًا ما توصلنا التسميات البشريّة إلى تمثيلات عن الحقيقة لا تعدو كونها مجرّدةً، وكمّيّةً، وجرداءً. فحين ننشغل بتسمية الأشياء «الحقيقيّة» القابلة للإحصاء حصرًا، تفقد أسماء الصفات أهميّتها وتُنحَّى إلى الحيّز الذاتيّ. لهذا السبب، لا يجد أيّ عالم كوزمولوجيا نموذجيّ معاصر حرجًا من قول إنّ الكون يقوم على مبادئ رياضيّة محدّدة، لكنّه يستحيل أن يقول إنّ الكون قائم على الحبّ والرحمة لأنّما عنده غير قابلَين للإحصاء[٢]. أمّا بالنسبة إلى تشيتيك، فلا يعود سبب ذلك إلى أنّ الحبّ والرحمة غير قابلَين للإحصاء فحسب، بل لأنّ الذات الباحثة قد أضحت منسلخةً عن الكون إلى حدّ أنّها عميت عن الصفات التي تجمعها بموضوع بحثها: «حين يُسمَّى الكون بأسماء تنطبق أساسًا على أشياء ميتة أو آلات أو عمليّات مجرّدة، لا بدّ أن نفهمه من زاوية الموت، والميكانيكيّة، والتجريد، غافلين عن الحياة، والرحمة، واليقظة الكامنة في كلّ ذرّة من ذرّاته»[٣].

أولئك الذين يعيشون في كون مجرّد لا بدّ لهم من أن يتعاملوا مع الأشخاص والأشياء على أنّها مجرّدات، وأولئك الذين يعيشون في كون آليّ لا بدّ لهم من أن يتعاملوا مع كلّ شيء على أنّه آلة،

---

(١) *Science of the Cosmos, Science of the Soul*, op. cit., p. 86.

(٢) من هذا المنطلق يسأل تشيتيك: «ماذا عسى النتيجة تكون إذا كانت الأسماء المهمّة هي أسماء الكويزارات والكواركات والميونات والثقوب السوداء والانفجارات الكبيرة؟ ما هي الثمرة النفسيّة والروحيّة التي تنتج من تسمية الأشياء المطلقة بالاعتماد على المعادلات الرياضيّة؟» انظر:
Science of the Cosmos, Science of the Soul, op. cit., p. 86.

(٣) Ibid, p. 92.

وأولئك الذين يبدو لهم الكون قاسيًا ولا مبالٍ لا بدّ لهم من أن يعاملوه بالمثل[١].

ليست الأسماء في الكون مجرّدةً وغير شخصيّة، كما بيّنت أعلاه، بل هي مجسَّمة ويستطيع البشر أن يفهموها. أمّا سبب كونها مجسَّمة فهو أنّ الإنسان ذا حقيقة إلهيّة قابلة للتغيّر[٢]. وما دام فهمنا للكون لا يعدو كونه انعكاسًا لفهمنا لأنفسنا، فإنّ رؤية الكون رؤيةً غير شخصيّة هي في نهاية المطاف من عوارض مشكلة روحيّة أعمق[٣] هي مشكلة فقدان المعرفة بالذات.

من هذا المنطلق، يؤدّي الجهل بالذات الحقيقيّة إلى فقدان التوازن على المستويَين الإنسانيّ والكونيّ[٤]. ومن أجل أن نستعيد توازننا، بحسب تشيتيك، يجب علينا أن نحقّق الأسماء ونحيا طبيعتنا الإلهيّة فنعيش حياةً منسجمةً مع الأسماء والفضيلة عبر إعطاء كلّ شيء **حقّه** ووضع الأشياء مواضعها، تخلُّقًا بأخلاق الله. بالمحصّلة، تُعنَى الرؤية الأنثروبوكوزميّة أساسًا بمعرفة النفس، ولذلك يخصّص تشيتيك قسمًا كبيرًا من كتاباته لمسألتَي **التحقيق** و**التقليد**[٥]. وبرأي تشيتيك، إنّ المسيرة نحو التحقيق وحدها هي التي تتيح للمرء أن يعرف طبيعة الأشياء الحقيقيّة، فالمعرفة المكتسبة بالتقليد ـ ومعرفة معظم الناس هي من هذا النوع ـ هي قائمة في نهاية المطاف على آراء الآخرين[٦]. ختامًا، فقط عندما نحقّق ذاتنا الحقيقيّة نصير قادرين على رؤية النفس والكون على أنّهما كلّ موحّد. وكما يقول تشيتيك، أيّ معرفة لا تصل إلى مصاف معرفة النفس ليست إلّا نقيض المعرفة في الحقيقة، ولن تزيد الحالة البشريّة إلّا سوءًا:

---

(١) *Science of the Cosmos, Science of the Soul, op.cit.*, p. 87.

(٢) *Idib*.

(٣) في هذا السياق يقول تشيتيك: «إنّ صورة الكون المعدَم والمسطّح ما هي إلاّ انعكاس لصورة الروح المعدَمة والمسطّحة». انظر:

Science of the Cosmos, Science of the Soul, op. cit., pp. 131-132.

مع ذلك، لا يبصر بعض الناس صفات الله في الكون بسبب رؤيتهم الكون من زاوية تنزيه الله عمّا سواه. صحيح أنّ هذا المنظور مكوِّن أصيل من مكوّنات الدين الإسلاميّ، لكنّه في أشدّ صيغه تطرّفًا قد يري المرء الطبيعة على أنّها موضوع مجرّد فارغ من أيّ معنًى مقدّس. يبرز ذلك شديد الوضوح في بعض الدول الإسلاميّة الصناعيّة المعاصرة حيث يأتي الاستغلال الفاحش للموارد الطبيعيّة متلازمًا مع عقيدة عوجاء تنزّه الله تنزيهًا مفرطًا. ولا شكّ في أنّ عقيدةً مماثلةً هي عرضة لأن تتبدّى عمليًّا بطريقة عنيفة. للمزيد، انظر:

Tim Winter, "Bombing without Moonlight: The Origins of Suicidal Terrorism", in *Encounters* **10**/1-2 (2004): pp. 93-126.

(٤) *Science of the Cosmos, Science of the Soul*, op. cit., p. 131.

(٥) انظر، على سبيل المثال، ما يلي:

Science of the Cosmos, Science of the Soul, op. cit., pp. 45-47, 118-121.

(٦) Ibid, p. 119.

أن تكون إنسانًا يعني أن تسعى لتحصيل المعرفة التي ستزيد من إنسانيّتك. أمّا الصفة التي تميّز الإنسانيّة، فهي الفطنة العارفة بنفسها وإدراك أنّ الذكاء الحقيقيّ يستدعي تركيز الجهود، بذكاء، على معرفة النفس. أيّ معرفة لا تعين على رحلة معرفة النفس هي في الواقع جهل ولا يمكن أن تكون ثمرتها إلّا انحلال الطبيعة البشريّة وهلاكها[١].

(١) Chittick, "The Pertinence of Islamic Cosmology," in *Reason and Inspiration in Islam: Theology, Philosophy, and Mysticism in Muslim Thought*, ed. Todd Lawson (London and New York: I.B. Tauris, 2005), p. 283.